شرف الإنسان في عبادة الرحمان

بشير أحمد صلاد *

يكثر الحديث و يتكرر بمناسبة و غير مناسبة حول حرية الإنسان و حقوق الإنسان و شرف الإنسان و كرامته ، حتى أصبح ذالك شعارا براقا يلهث وراءه اللاهثون و مظلة زائفة تستظل بها الحركات الهدامة ،و قناعا كاذبا يتستر وراءه المخادعون للبشرية و المضلون للإنسانية عن شرفها و حريتها الحقيقية ، حتى تمكن الذين يجيدون الاصطياد في الماء العكر من استصدار ما يسمى بميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان و هو في الحقيقة وثيقة تعبد الإنسان لهواه و للشيطان ،و لاتمت إلي الحرية الحقيقية بصلة ، و أني لمثل هولاء أن يهتدوا إلي حيث الشرف و الكرامة ، و قد اتخذوا الشيطان وليا من دون الله ،فجاد عليهم بما عنده و كأنه يقول : الجود من الموجود ، و كل إناء بما فيه ينضح ٠ قال الله تعالى : كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله و يهديه إلي عذاب السعير "(١) فهذه هي بضاعته التي يروجها ،و سلعته التي ينادى عليها (الضلال) الذي يعنى بذل الجهد في الاتجاه غير الصحيح، و استفراغ الوسع فيما لا يؤدى إلي النتيجة ،و لايصل إلي المقصود ، فلا هم حققوا المصلحة و لا هم وفروا على أنفسهم الوقت و الجهد ، ثم تأتى النهاية الحتمية لهذه التجارة الخاسرة "عذاب السعير ٠ و أبلغ ما يصور هذه الرحلة البائسة قوله تعالى " قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا" ("٢)و خلال هذه الرحلة الطويلة لا يرعوون عن غيهم ،و لا ينتبهون لسوء حالهم ،لأن الشيطان يقدم لهم الأماني المعسولة ، و ينفخ فيهم الغرور الكاذب حتى يضمن مواصلتهم السير إلي نهاية المطاف، يقول الله تعالى : و من يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ٠ يعدهم و يمنيهم و ما يعدهم الشيطان إلا غرورا ٠(٣)و يقول أيضا " ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ٠ (٤)

---

* أستاذ= لمادة التاريخ الإسلامي/ بجامعة أبي بكر الإسلامية ،كراتشى

يقول العلامة السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية "و هذا من عقوبة الكافرين ،أنهم لما لم يعتصموا بالله و لم يتمسكوا بحبل الله ، بل أشركوا به و والوا أعداءه من الشياطين ـ سلطهم عليهم ، و قيضهم ، فجعلت الشياطين ، تؤزهم إلي المعاصي أزا ، و تزعجهم إلي الكفر إزعاجا فيوسوسون لهم ،و يوحون إليهم و يزينون لهم الباطل و يقبحون لهم الحق ،فيدخل حب الباطل في قلوبهم و يتشربها فيسعى فيه سعي المحق في حقه ، فينصره بجده ، و يجاهد أهل الحق في سبيل الباطل "(٥)

و تسليط الشيطان عليهم سببه أنهم تولوه و ألقوا إليه بمقاليد هم ، و أعلنوا له الطاعة المطلقة ، و لم يحرزوا أنفسهم في حرز التوحيد ، و لم يتحصنوا بحصن الإخلاص ، كما هو موضح في قوله تعالى في آية أخرى " انه ليس له سلطان على الذين آمنوا و على ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون "(٦) يقول العلامة السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية " و ذالك بتخليهم عن ولاية الله و دخولهم في طاعة الشيطان ، و انضمامهم لحزبه ـ فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم ،فأزهم إلى المعاصي أزا و قادهم إلي النار قودا " (٧)

و لقد أراد (٨)الله لعباده شرف التوحيد و خلقهم على الفطرة السليمة و لكن الشياطين لم ترض للبشرية هذا الشرف ،و حسدتهم على هذه النعمة ، و قامت بعملية إضلال مكثفة و مستمرة حتى تحرم هذا الشرف أكبر عدد ممكن من البشرية، روى الإمام مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ قال ذات يوم في خطبته " ألا إن ربى أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا : كل مال نحلته عبدا حلال(٢/٨) و أنى خلقت عبادي حنفاء كلهم ، و انهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا "(٩)

و هذا الحديث النبوي الشريف يسلط لنا الضوء على الفرصة التي كانت متاحة أمام البشرية ـ و لاتزال ـ في التشرف بعبادة الله وحده و الانعتاق من تسلط الشياطين و ادلال النفس بتعبيدها لغير خالقها ، و لكن كثيرا من الناس قد فوتوا على أنفسهم هذه الفرصة فوقعوا في صنوف شتى من الذل و الهوان، منها التضييق على أنفسهم و تحريم ما أحل الله لهم،و ظلم النفس و سلبها حقها في التمتع بالطيبات ، افتراء على الله.

و قد أولى القرآن اهتماما بالغا بقضية التحريم و التحليل ، و ازال شبهات المخالفين بجميع اصنافهم بصراحة و وضوح ، و لاسيما سورة الأنعام التي حفلت بآيات كثيرة و بأساليب متنوعة حول هذه القضية وتعرضت بحديث مستفيض ، لاعتقادات الجاهلية و خرافاتهم في هذا الباب بما لامزيد عليه ، حتى قال

حبر الأمة و ترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنه " إذا سرك أن تعلم جهل العرب فأقرأ ما فوق الثلاثين و مائة من سورة الأنعام " (١٠)

و من صنوف الذل و الهوان التي وقع فيها من أضلهم الشيطان ،و ذكرها حديث عياض بن حمار السابق، أنهم بنوا عقيدتهم على الجهل ، بعيدين عن الحجة و البرهان ،فأصبحوا فريسة للجهل و الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان بينما نرى الإنسان إذا تشرف بالتوحيد يكتسب مناعة ضد جميع الخرافة ، ولا يقبل قولا بلا برهان ، و شعاره : قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " فأصحاب الكهف أولئك الفتية المعتزين بالتوحيد المتحررين من خزعبلات البيئة الفاسدة ، يرفعون أصواتهم بالإنكار الشديد لخرافة الشرك التي عليها قومهم ، و يعبرون عن عقيدة التوحيد مع برهانها بلسان فصيح قائلين " ربنا رب السماوات و الأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا ، هولاء قومنا اتخذوا من دون الله آلهة لو لا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا " (١١)

و نجد إنكارا مماثلا لهذا من أحد الموحدين الذين عاشوا في الفترة قبل البعثة المحمدية ، عاش في مكة يستنكر الشرك بلهجة الموحد صاحب الحجة و البرهان ، يستلفت نظر الناس إلى الجرم الذي يرتكبونه ، و الجهل الذي يأتونه و هم يعبدون غير الله ، ذالك الموحد هو زيد بن عمرو بن نفيل الذي حفظت لنا كتب السيرة و التاريخ و الحديث كثيرا من مواقفه و مجموعة من أخباره ، ومن ذالك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ..... وان زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم و يقول : الشاة خلقها الله ، و انزل لها من السماء الماء و انبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟ إنكارا و إعظاما له .(١٢)

و من صور الذل الذي يصيب الإنسان إذا أشرك بربه أنه بهذا العمل يخرج عن منظومة الكون ،و يشذ عن اتجاه الخلائق آلتي تعبد خالقها و تسبح بحمده كما أخبر عنها بقوله "تسبح له السماوات السبع و الأرض و من فيهن و إن من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا "(١٣) و يرتكب جرما كبيرا هو محل استنكار من جميع الكون ، و يكاد يؤدى إلى دمار شامل للكون العلوي السفلي ، يقول الله تعالى " و قالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا ادا تكاد السماوات يتفطرن منه و تنشق الأرض و تخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمان ولدا " (١٤) و يمثل الشرك و أهله ثقلا كبير و مزاحما مزعجا لبقية الخلائق حتى ينتهي ذالك بموت صاحب هذه الجريمة فتتنفس الخلائق صعداء ، و لسان حالها يقول " فقطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد لله رب العالين " فلا تتم البشرى و لاتحصل الراحة

للخلائق إلا إذا زال الشذوذ و انتهى النشاز ، و يصور لنا رسول الله ـصلى الله عليه و سلم ـ هذا الوضع في الحديث الذي يرويه لنا أبو قتادة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر عليه جنازة فقال " مستريح أو مستراح منه ، قالوا يا رسول الله ما المستريح و المستراح منه ؟ قال " العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا و أذاها إلى رحمة الله ، و العبد الفاجر يستريح منه العباد و البلاد و الشجروالدواب· (١٥)

ولانفصام العلاقة بين أهل الكفر و الشذوذ و بين بقية الخلائق ، فان الكون لا يشعر بآي عطف تجاه هولاء ، فيذهبون غير مأسوف عليهم ، كما حكى الله عن هلاك فرعون و قومه ، فقال " فما بكت عليهم السماء و الأرض وما كانوا منظرين "(١٦) يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية " أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فيبكى على فقدهم،ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم "(١٧)

و يستمر شعور البغض لدى الكون ضد الكفار حتى يوم القيامة حيث تظهر جهنم و ملؤها الغيظ الشديد ، و يتضاعف هذا الغيظ إذا رأتهم و قرب الانتقام منهم ، يقول الله تعالى " إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا "(١٨) و يقول " تكاد تميز من الغيظ "(١٩)و يؤكد لنا حديث نبوي شريف هذا المعنى ، و يقدم لنا مظهرا من مظاهر هذا الغيظ الشديد لدى جهنم ضد أولئك المنحرفين عن الطريق ، فيقول الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ فيما يرويه عنه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ"يخرج عنق من النار يوم القيامة ،؟ له عينان تبصران ، و أذنان يسمعان ، و لسان ينطق ، يقول إني وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، و بكل من دعا مع الله إلها آخر ، و بالمصورين " (٢٠)

أما إذا أمن الإنسان بربه و وحده ، فانه بهذا يكون جزا من هذا الكون المسبح و يأخذ مكانه بين الخلائق في عبادتها لربها ،و لقد كشف الله هذا الغيب لداؤد ـ عليه السلام ـ و سخر له الجبال و الطير تسبح معه و تشاركه في عبادته و تردد معه الحمد و الثناء على الله سبحانه و تعالى، يقول الله تعالى "و لقد أتينا داؤد منا فضلا يا جبال أوبي معه و الطير " (٢١) و يقول " انا سخرنا إلجبال معه يسبحن بالعشى و الإشراق و الطير محشورة ،كل له أواب "(٢٢)

و لقد كان لرسول الله محمد ـ صلى الله عله وسلم ـ الحظ الأوفى و النصيب الأوفر من هذا الاتصال الكوني و الترحاب الواسع من قبل الخلائق ، تعرفه ، و تحن إليه ، و تأخذ نصيبها من الرحمة التي بعث بها ، فعن يعلى بن مرة الثقفي ـ رضى اله عنه ـ قال بنما نحن نسير مع رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ إذ مررنا ببعير يسنى عليه (٢٣) فلما رآه البعير جرجر (٢٤) فوضع جرانه (٢٥) فوقف عليه النبي

ـ صلى الله عليه و سلم ـ فقال "أين صاحب هذا البعير؟ فجاءه فقال " بعنيه ، فقال : بل نهبه لك يا رسول الله ،و انه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره قال: أما إذ ذكرت هذا من أمره، فانه شكا كثرة العمل وقلة العلف ، فأحسنوا إليه " (٢٦)

و عن عبد الله بن جعفر قال : أردفني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلفه ذات يوم فأسر إلى حديثا لا أحدث به أحدا من الناس ، و كان أحب ما استتر به رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ لحاجته هدف أو حائش نخل ، فدخل حائطا لرجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ حن و ذرفت عيناه فأتاه النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ فمسح سراته (٢٧) إلى سنامه و ذفراه (٢٨) فسكن فقال : من رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاءه فتى من الأنصار فقال : لي يا رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ فقال أما تتق الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ، فانه شكا إلى أنك تجيعه و تدئبه ٠(٢٩)

و ليس هذا الاتصال محصورا على ذوات الأرواح ، بل الجمادات تشارك في هذا الميدان ، و تحرص على ألا يفوتها نصيبها من هذا الشرف ، ولا تفرط فيه ، فقد روى جابر بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه قال : أنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن ابعث، إني لأعرفه الآن " (٣٠)

و تؤكد قصة الجذع هذا المعنى تأكيدا واضحا ، يقول جابر بن عبد الله : كان جذع يقوم إليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار ، حتى نزل النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ فوضع يده عليه " ٠(٣١) و في بعض ألفاظ الحديث انه بكى على ما كان يسمع من الذكر ،و في هذا تصريح بعلة البكاء ، و إن الجذع كان يحس بذاك و يرتاح له و أنه سكن و اطمأن بعد أن وضع الرسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ يده عليه و احتضنه و رضى بهذا ، ولولا هذه اللفتة النبوية الرحيمة لكان له شأن آخر كما تفيد الرواية التي فيها زيادة " لو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة " (٣٢)

و هذه شجرة تحرص على أن تسلم على رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ فعن يعلى بن مرة الثقفي ـ رضى الله عنه ـ قال : سرنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلنا منزلا فنام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكرت له فقال: هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلم على رسول الله فأذن لها " (٣٣)

لم تقتصر الجمادات على مظاهر المحبة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل نطقت بلسان فصيح تشهد له بالرسالة ، و تقيم الحجة على من ينكر ذالك أو يرتاب فيه ، وتكون سببا في إسلام رجال من بنى البشر ، يدينون لها بهذا الفضل العظيم حيث كانت سببا في إسلامهم ، و إخراجهم من الظلمات إلى النور ، و ذالك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم ، فقد قال عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له و أن محمد ا عبد الله و رسوله :قال : ومن يشهد على ما تقول ؟ قال : هذه السلمة ، فدعاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ و هو بشاطئ الوادي فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت ثلاثا انه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها "(٣٤)

وكانت بعض هذه الجمادات تؤدي خدمات جليلة لرسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ إيمانا منها برسالته ،وتعظيما منها لقدره،فمن ذالك ما يرويه جابر- رضي الله عنه ـ قال:سرنا مع رسول الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أفيح(٣٥)فذهب رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ يقضي حاجته فلم ير شيئا يستتر به وإذا بشجرتين بشاطئ الوادي،فانطلق رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال:انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش(١/٣٦) الذي يصانع قائده حتى أتي الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال:انقادي علي بأذن الله،فانقادت معه كذالك،حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما قال:التئما علي بإذن الله ،فالتأمتا،فجلست أحدث نفسي فحانت منى لفتة فإذا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقبلا وإذا بالشجرتين قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق ،(٣٦)

و منها انه ـ صلى الله عليه و سلم ـ قد علم بوجود الجن الذين كانوا يستمعون إلى قراءته بواسطة شجرة قامت بهذه المهمة ببادرة من عندها ، كما روى ذالك الإمام الثقة مسروق عن عبد الله بن مسعود في حديث متفق عليه ،(٣٧)

و منها انه لما حاولت المرأة اليهودية أن تتخلص من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريق وضع السم له في الطعام فذبحت شاة و أكثرت فيها السم و خاصة الذراع التي كانت تعجب رسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ ، فان المحاولة فشلت بفضل الله عن طريق المعلومات المؤكدة التي تلقاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الذراع المسمومة ،، و ما يعلم جنود ربك إلا هو ، و هذا مصداق قوله تعالى " و الله يعصمك من الناس " (٣٨)

و قد عبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذا التواصل الإيماني ، و عن هذا الاتجاه الموحد لدى (الموحدين) المكلفين و المطبوعين ، عبر عنه بصيغة صريحة في أن هذا التواصل يرتقى إلى درجة المحبة المتبادلة بين المؤمنين من بنى البشر و المطبوعين من الجمادات، فعند ما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بعض أسفاره ، و بدأ له جبل أحد ، قال هذا جبل يحبنا و نحبه ٠"(٣٩)

و يستمر هذا التواصل و الولاء حتى تشارك الجمادات في قتال الكفار (اليهود) المنبوذين من قبل جميع المخلوقات الموجودة ، فقد روى أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر و الشجر ،فيقول الحجر و الشجر " يا مسلم، يا عبد الله ، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ٠ إلا الغرقد ، فانه من شجر اليهود " (٤٠)

قد تأول قوم هذه النصوص بأنها أساليب مجازية و تعبيرات تقريبية و أمور تصويرية و ليس مقصودا أن تلك الجمادات تحس أو تميز ، و لكن العلماء المحققين قد ردوا هذا التأويل فها هو اللامام النووي ـ رحمه الله ـ يقول في شرح حديث جبل أحد " الصحيح المختار أن معناه إن أحدا يحبنا حقيقة جعل الله فيه تميزا يحب به ، كما قال الله تعالى : و إن منها لم يهبط من خشية الله ، و كما حن الجذع اليابس ، و كما سبح الحصى و كما فر الحجر بثوب موسى ـ عليه السلام ـ و كما قال الله تعالى " وإن من شئ إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم " و الصحيح في معنى هذه الآية أن كل شئ يسبح حقيقة بحسب حاله و لكن لا نفقهه، و هذا وما أشبهه شواهد لما اخترناه و اختاره المحققون في معنى الحديث و أن أحدا يحبنا حقيقة ، و قيل المراد يحبنا أهله فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه و الله اعلم ٠(٤١)

و قد شهد أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرا من النماذج التي تؤكد أن هذا الكون يشاركهم في التسبيح و التحميد ، فكانوا يسمعون تسبيح الطعام و هو يؤكل، و يسمعون تسبيح الحصى في يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل إن ذالك جرى لبعضهم فقد سبحت الحصى في يد بعض أصحابه ، كما يدل عليه حديث أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : انطلقت التمس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بعض حوائط المدينة ٠ فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاعد فاقبل عليه أبو زر حتى سلم على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال أبو زر: و حصيات موضوعة بين يديه فأخذهن في يده فسبحن في يده ثم وضعهن في الأرض فسكتن ، ثم أخذهن فوضعهن في يد أبى بكر فسبحن في يده ثم أخذهن فوضعهن في

الأرض فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن في يد عمر فسبحن في يده ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن ثم أخذهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن،ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن " (٤٢)

وقد ذكر المؤرخون أن التابعين شهدوا حادثة مهمة تدل على هذا التفاهم الكوني ، في قصة عقبة بن نافع الفهرى ، عند ما أراد بناء مدينة "القيروان " لاتخاذها مكان استقرار و انطلاق للجهاد في أفريقيا ، و كانت المنطقة التي وقع عليها اختيارهم أرضا مسبعة ، فنادى عقبة و خاطب قاطني المنطقة من الحيوانات و طالبها بإخلائها و الانتقال منها ، حتى يتسنى لهم بناؤها و الاستقرار فيها ، و ضرب لها أجلا محدودا ، فما كان من الحيوانات إلا أن خرجت في مجموعات ،و كأنها فهمت الخطاب، و اقتنعت بلا أسباب (٤٣)و الأذان للصلوات هو محل اهتمام جميع الكائنات ، تفهمه و تنتبه له ،و تشهد لصاحبه ، و هذا إن دل على شي فإنما يدل على إن هذا الصوت ليس غريبا عليها و أن معانيه مفهومة لديها ، لذا استحب للمسلم أن يرفع صوته بالأذان و لو كان وحده في بادية و في غنمه ، فصوته مسموع ، و ذكره مشهود ، ففي الحديث الذي رواه أبو صعصعة الأنصارى أن أبا سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال له : إني أراك تحب الغنم و البادية فإذا كنت في غنمك أو باديتك ، فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك بالنداء فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ، ولا انس و لاحجر ولا شي ، إلا شهد له يوم القيامة، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ،(٤٤)

و كما أن التوحيد الذي يشتمل عليه الأذان محل ترحيب ، فان الشرك محل استنكار شديد من قبل الكائنات الموحدة و المخلوقات المسبحة ، فهدهد سليمان ـ عليه السلام ـ استلفت نظره شرك أهل سبأ ، و كيف أن الشيطان استحوذ عليهم و صدهم عن سبيل التوحيد " وجدتها و قومها يسجدون للشمس من دون الله و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون " (٤٥) ثم عبر عن استغرابه لانحرافهم عن توحيد الله المتصف بصفات الكمال و نعوت الجلال " ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات و الأرض و يعلم ما تخفون و ما تعلنون ، الله لا اله إلا هو ، رب العرش العظيم " (٤٦) و الملاحظ أن الهدهد لم ينبهر بالمنجزات المادية لأهل سبأ و لم يطمع في علاقات اقتصادية متينة مع هذا البلد ، و لا تطبيع العلاقات و تبادل السفراء ، إنها رؤية إيمانية متزنة منضبطة لا يستهويها منظر خلاب، و لا يخدعها مظهر جذاب ،

الإنسان في حالة البعد عن الله يقع فريسة للأوهام والخيالات والعقائد الباطلة ، يخاف من كل مخلوق أكبر منه حجما ، فيخضع له و يتقرب إليه ، فيسجد للإجرام السماوية ، ولكل ما يرى أن له تأثيرا كبيرا في

حياته ، حتى عبدت الأشجار و الأحجار و الأنهار و الأبقار ، و تنتكس الفطرة عند هولاء فيفضل أحدهم البقرة على أمه ، ويقول عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانا لأني أعبد البقرة (٤٧) ،

وهناك معابد فخمة مسكوه بالرخام الأبيض الفاخر ، ترسل إليها الهدايا من شتى أنحاء الهند ، و المدهش أن الآلهة التي تقدم لها القرابين و ترسل إليها النذور في تلك المعابد إنما هي الفئران ٠(٤٨)

في حالة البعد عن الله يسيطر على الإنسان الخوف من المجهول ، الخوف من أرواح خبيثة لايرها ، ولا يستطيع مواجهتها ، الخوف من المستقبل ، فيرتمي في أحضان الخرافة ، و يلجأ إلى الكهنة و مدعى الغيب ، الذين يحملون اسم الدكتور أو البروفيسور ، و لابأس في أن يستعين الدكتور بطائر مدرب يسحب الأوراق التي فيها المعلومات الغيبة ، و هذا إهدار لقيمة الإنسان و تضييع لأمواله و تلاعب بعقله و كثير من المجلات الخليعة فيها صفحة مخصصة بالتنجيم و الكهانة بعنوان :حظك هذا الأسبوع : فتفسد الأخلاق بخلاعتها و تفسد العقيدة بكهانتها ٠

بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه و سلم ـ و قد سيطرت الأوهام و الخيالات على عقول الناس ففقدوا الفهم الصحيح لما يدور حولهم ، فجاء الإسلام يحررهم و يعيد إليهم كرامتهم و يعلمهم التعليل الصحيح لما يجرى حولهم ، إذا انقض نجم كانوا يقولون مات عظيم أو ولد عظيم ٠(٤٩) و إذا انكسفت الشمس أو القمر لا يجدون له تعليلا إلا بموت أحد من الناس فيأتيهم التعليل الصحيح : إن الشمس و القمر آيتان من آيات الله لاينكسفان لموت أحد و لا لحياته ٠ و علمهم الإسلام الاستخارة في الامور المستقبلية فتهدأ قلوبهم و تصح عقيدتهم و تسلم لهم عقولهم و أموالهم ٠

و في الأوضاع الشركية تتحكم في الإنسان الأطماع النفسية ، و تحركه الوسائل المادية في الترغيب و الترهيب ، فيفقد ذاتيته و استقلاله و يبيع ذالك كله بثمن بخس ، همه أن يعيش و لو كان الثمن عقيدته و دينه ، همه أن يتقرب إلى أصحاب النفوذ فيحظى ولو بكلمة ، و يجد ولو لقمة ٠ ولكن في الأجواء الإيمانية يختلف الأمر ،فإذا الإنسان عزيز النفس ، قوى القلب ، لا يحركه طمع دنيوي و لا يستهويه أمرشهواني٠

فقد جاء سحرة فرعون و همهم الدنيا و الطمع في الأجر من فرعون " أن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين " (٥٠) ولما منّ الله عليهم بالإيمان إذا هم خلق آخر لم يعد فرعون يساوى عندهم شيئا ، ولم يعد الترغيب و الترهيب يحركهم أو يؤثر فيهم ،يقولون في عزة و تصميم" لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات و الذي فطرنا فأقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا " (٥١)

في حالات الانحراف ، يفقد الإنسان الميزان الصحيح امعرفة الأشياء و الأشخاص فيزيغ بصره ، و تضل رؤيته ، فيجرى وراء السراب و تختل عنده القيم فيتأرجح و يتذبذب و يميل مع الريح،ولا يتبين له الصواب إلا بعد فوات الأوان . فعندما خرج قارون على قومه في زينته ، في حالة استعراض مؤثرة ، سارع المنحرفون إلى الإعجاب به و التمني مثل حاله ، ولكن أهل العلم و الإيمان لم ينحرفوا مع التيار ، ولم يستجيبوا للتأثير ، ينظرون إلى الحقائق من وراء الضجيج و العجيج قائلين محذرين " ويلكم ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحا ، ولا يلقها إلا الصابرون " (٥٢)

و في الأوضاع المنحرفة ، تضيع قيمة الإنسان فتهدر روحه ، و قد تقدم قربانا إلي بعض المعبودات الزائفة ، أو تقتل في حروب جاهلية تحت رايات عمية لتحقيق مصالح قومية أو لتثبيت زعامات معينة ، و تنتشر جريمة القتل بصورة مروعة و تحدث و تتكرر بالدقائق و الثواني ، و يذهب القتلة و يمرحون ، و تسجل القضية ضد مجهولين ، و تكرر الصحافة العبارة المعروفة " نا معلوم أفراد " (١/٥٣)

بينما ترتفع قيمة الإنسان المسلم في الأوضاع الإيمانية ، و تتأكد حرمة النفس ، لأن هذا أمر يتربى عليه المسلم كما يتربى على التوحيد ، حيث أن القرآن يقرن بين التوحيد و بين حرمة الأنفس و الأموال . (٥٣) و يؤكد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الحرمة بقوله " لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق " (٥٤) و يقول " و هو ينظر إلى الكعبة " ما أعظمك و ما أعظم حرمتك و لكن العبد المؤمن أعظم حرمة عند الله " (٥٥)، و يؤكد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ هذه الحرمة بقوله في قضية الغلام الذي تواطأ بعض الناس على قتله " و الله لو تواطأ أهل صنعاء على قتله لقتلتهم به، و هذه الحرمة قديمة في جميع الشرائع الإلهية ، فنبي الله موسى ـ عليه السلام ـ لم يملك نفسه حينما رأى ما ظاهر ه قتل نفس بغير حق ، فصرخ بصوت ملؤه الاستنكار و الاستغراب " أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا " (٥٦) و قد غلبه هذا الشعور حتى نسى معه العهد الذي قطعه على نفسه للمرة الثانية بعدم السوال . الهرج و المرج صفة لازمة لجميع الأوضاع المنحرفة ، و هي التي كانت سائدة إبان البعثة المحمدية ، حروب طاحنة لاسباب تافهة ، و ما حرب داحس و غبراء بمجهولة، كثر هذا حتى بدا و كأن المسألة مسألة هواية ، فلا بد من القتل و الغزو و النهب ضد من كان . يقول أحد العرب في تلك الفترة:

و أحيانا على بكرة أخينا & إذا لم نجد إلا أخانا

ضياع في الأرواح و ضياع في الأهداف و زيغ في الاهتمامات ، فجاء الإسلام يعيد حرمة النفس و يحدد لهم الأهداف و يعلمهم الآداب قائلا " اغزوا باسم الله، و في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا

ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، و لاتمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا "(٥٧)

جاء الإسلام يصحح لهم الاهتمامات و يضعها في مسارها اللائق و يرتفع بهم عن الاهتمامات السفلية قائلا لهم " إن الله تعالى يحب معالي الأمور و أشرافها ، و يكره سفسافها " (٥٨) فلما استجابوا لنداء الإسلام ، سمت أرواحهم و زكت نفوسهم و اكتشفوا حقيقة الدور الذي يمكن أن يقوموا به ، و الغاية التي تستحق أن يسعوا إليها ، و نظروا إلي ماضيهم نظرة الترفع و الازدراء ، متأسفين على ضياع الوقت في التيه و ذهاب الجهود فيما لا يفيد ، يقول الشاعر النابغة الجعدى بعد ما أسلم و هو يعبر عن هذا الشعور

مكثنا زمانا نحسب كل بيضاء شحمة & إيان إذ نغزوا جذام و حميرا ٠

و عند ما أسلمت هند بنت عتبة عام الفتح تحولت من آكلة الأكباد إلي العفيفة المتعففة من مال زوجها ، و توجهت إلي بيتها تحطم صنم الأسرة بيدها قائلة : لقد كنا منك في غرور ٠

و في هذا الزمن الذي كثر فيه البعد عن منهج الله ، يكثر الشقاء ، و يتنوع الهدر ، و تتشكل المهانة بأشكال كثيرة ، هدر في الأرواح ، وقد مر بنا شيء منه ، و هدر في الأموال و أخطره الأموال التي تنفق على المشاهد و القبور التي عمت و طمت حتى جعلوا شاعر النيل حافظ ابر أهيم يرفع عقيرته و يندب حظه قائلا ٠

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم & والف الف درهم ترزق الأموات

من لي بحظ النائمين بغرفة & فأقيمت في عرصاتها الصلوات

ومن أخطر الهدر هدر الأرواح و الأموال و الأوقات و الجهود و المشاعر في المباريات بين النوادي و الفرق المحلية و الإقليمية و الدولية فيما يشبه الجنون ، بل هو الجنون نفسه ، و فيه إتاحة الفرصة لبروز الكفار و الفاسقين ، وتسليط الأضواء عليهم ، ومن أشد صورة المهانة إخراج المرأة المسلمة من بيتها و اتخاذها وسيلة لترويج البضائع و تسويق الأزياء و تزيين واجهات المحلات التجارية ، و العجيب أن يتم كل هذا باسم تحرير المرأة و حقوق المرأة ٠

في أجواء البعد عن منهج الله تترعرع الحشائش السامة و تبرز القيادات الضالة ، و تتعملق الأقزام و يستنسر البغاث ، و يفقد الناس الوعي و حسن الاختيار ، فيستسمنون ذا ورم ، و يستحسنون ذا جرم ، ولا مخرج لهم من هذا التيه إلا إذا استناروا بنور الله ، و تمسكوا بحبل الله ، عملا بقوله " و اعتصموا بحبل الله جميعا و لاتفرقوا " (٥٩) و يقول رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ إن هذا القرآن سبب طرفه بيد

الله ، و طرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا و لن تهلكوا بعده أبدا " (٦٠) و قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ" كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض(٦١)، عندئذ و عندئذ فقط يستبينون مواقع أقدامهم ، و يتعرفون على حقيقة حالهم ، ويتحررون من المعبودات الزائفة التي تهينهم و تهدر مقدراتهم ، و يصرون على حرقها قائلين " لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا " يكفرون بها و لا يسبحون باسمها قائلين :

يا عزى كفرأتك لاسبحانك & أني رأيت الله قد أهانك .

ينتهي التضليل ، و يتوقف الدجل و يشب الناس عن الطوق و يفيئون من ذل الشرك إلي عز التوحيد، يحمدون الله على الهداية في الدنيا كما يحمدونه في الآخرة ، قائلين : الحمد لله الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله .

المراجع و المصادر

١ـ القرآن الكريم سورة الحج رقم الآية ٤

٢ـ القرآن ، سورة الكهف ، رقم الآية ١٠٣ ـ ١٠٤

٣ـ القرآن ، سورة النساء رقم الآية ١١٩ ـ ١٢٠

٤ـ القرآن ، سورة مريم رقم الآية ٨٣

٥ ـ السعدي ، عبد الرحمان ناصر تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان جمعية إحياء التراث الإسلامي عام ١٩٩٧ ٢/ ٦٧٤

٦ ـ القرآن ، سورة النحل رقم الآية ٩٨ ـ ٩٩

٧ ـ السعدي ، ١/٦٠٤ـ ٦٠٣

٨ ـ المقصود بالإرادة هناء الإرادة الشرعية التي قد تتخلف و يملك الإنسان الاختيار أمامها و ليس المقصود الإرادة القدرية الكونية التي لا تتخلف أبدا و يخضع لها الكون جميعه

١/٨ـ في الكلام حلف أي قال الله تعالى كل مال.... الخ،والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبه والوصيله والبحيرة والحام وغير ذالك وأنها لا تصير حراما بتحريمهم المزعوم،وأن كل مال ملك العبد فهذا حلال حتى يتعلق به حق(من شرح الإمام النبوي على صحيح مسلم،بيروت دار الكتب العلميه :١٧/١٩٧

٩ ـ مسلم الصحيح بيروت ، دارا لفكر رقم الحديث ٢٨٦٥

١٠ ـ البخاري ، محمد بن إسماعيل الصحيح المطبعة السلفية باب قصة زمزم و جهل العرب ٥١٠ـ٥١١ ٢/

١١ ـ القرآن ، سورة الكهف رقم الآية ١٤ ـ١٥

١٢ ـ البخاري الصحيح باب حديث عمرو بن نفيل ٤٩ / ٣

١٣ ـ القرآن ، سورة الإسراء رقم الآية ٤٤

١٤ ـ سورة مريم ٨٨ إلي ٩١

١٥ ـ متفق عليه (البخاري كتاب الرقائق رقم الحديث ٦٥١٢ مسلم كتاب الجنائز الرقم العام ٩٥

١٦ ـ سورة الدخان ٢٩

١٧ ـ ابن كثير تفسير ابن كثير الرياض / مكتبة دار السلام ٤/ ١٨١

١٨ - سورة الفرقان ١٢

١٩ - سورة الملك ٨

٢٠ - الألباني ، ناصر الدين السلسلة الصحيحة بيروت المكتب الإسلامي رقم ٥١٢

٢١ - سورة سبأ ١٠

٢٢ - سورة ص ١٨ - ١٩

٢٣ - معناه يستقى عليه (ابن أثير النهاية في غريب الحديث مادة "سنا"

٢٤ - الجرجرة صوت البعير عند الضجر (المرجع السابق مادة جرجر)

٢٥ - الجران ،باطن العنق (نفس المرجع مادة جرن

٢٦ - الألباني تحقيق المشكاة بيروت المكتب الإسلامي ١٦٦٤- ١٦٦٥ /٣

٢٧ - سراه كل شيء ، ظهره و أعلاه (ابن الأثير ، النهاية مادة "سرى "

٢٨ -ذفري البعير ، أصل أذنيه نفس المرجع مادة ذفر)

٢٩ - الألباني ١/ ٢٠

٣٠ - مسلم كتاب الفضائل باب ١ رقم الحديث ٢

٣١ - البخاري كتاب الجمعة رقم الحديث ٩١٨

٣٢ - الألباني صحيح الجامع الصغير رقم الحديث ٥٣٠٠

٣٣ - مشكاة الحديث سبق ذكره ٣/ ١٦٦٤

٣٤ - المرجع السابق ٣/١٦٦٦

٣٥ - أي الموضع الواسع النهاية مادة فبح

٣٦ - مسلم كتاب الزهد رقم الحديث ٣٠١٢

١/٣٦ البعير المخشوش الذي جعل في أنفه الخشاش والخشاش عويد يجعل في أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لانقياده(ابن أثير، النهاية ،ماده= خشش)

٣٧ - البخاري كتاب مناقب الأنصار رقم الحديث ٣٨٥٩

٣٨ -الألباني،صحيح أبي داؤد بيروت المكتب الإسلامي رقم الحديث ٣٧٨٤

٣٨ - سورة المائدة ٦٧

٣٩ - البخاري كتاب المغازى رقم الحديث ٤٤٢٢

٤٠ - البخاري رقم الحديث ٣٥٩٣

٤١ - مسلم مع شرح النووي ص ١٣٩ -١٤٠ ج ٩

٤٢ - ابن أبي عاصم كتاب السنة المكتب الإسلامي رقم الحديث ١١٤٦ ج ٢

٤٣انظر : ابن كثير محمد بن إسماعيل البداية و النهاية بيروت دار الكتب العلمية ٨/ ٢١٩

٤٤ - البخاري كتاب الأذان حديث رقم ٦٠٩

٤٥ - سورة النمل ٢٤

٤٦ - سورة النمل ٢٥ - ٢٦

٤٧ - الأشقر ، عمر سليمان الرسل و الرسالات مكتبة الفلاح ١٩٨٢ ٣٧

٤٨ - نفس المرجع ٣٨ -٣٩

٤٩ - مسلم كتاب السلام رقم الحديث ٢٢٢٩

٥٠ - سورة الشعراء ٤١

٥١ ـ سورة طه ٧٢

٥٢ ـ سورة القصص ٨٠

١/٥٣ – كلمة أردية " أفراد مجهولون"

٥٣ ـ انظر مثلا [سورة الأنعام الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ و سورة الإسراء ٢٢ ـ ٣٩]

٥٤ ـ الألباني الجامع الصغير رقم الحديث ٥٠٧٨

٥٥ ـ ابن ماجة رقم الحديث ٣٩٣٢

٥٦ ـ سورة الكهف ٧٤

٥٧ ـ الألباني رقم الحديث ١٠٧٨

١/٥٨– ابن سعد ،طبقات تحقيق محمد عبد القادر عطا،بيروت، دار الكتب العلمية ٨/١٨٨

٥٨ ـ المرجع السابق رقم الحديث ١٨٩٠

٥٩ ـ سورة آل عمران ١٠٣

٦٠ ـ الألباني السلسلة الصحيحة ٢/ ٧١٣

٦١ ـ الألباني صحيح الجامع الصغير رقم الحديث ٤٤٧٢

٦٢– قال هذه الكلمة ـ خالد بن الوليد و هو يهدم هذا الصنم بأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ٠ ابن كثير، السيرة النبوية/تحقيق مصطفى عبد الواحد،بيروت ،دار الفكر ٣/٥٩٧